٦– الظواهر الفنّيّة في الخُطَب الجاهليّة:

سبقَ القَوْلُ إنّ ما وصل إلينا من خُطَبِ الجاهليّة قليل، وإنّ ما وصل إلينا لأشهر خطبائهم لا يكاد يتجاوزُ أصابعَ اليَدِ الواحدة؛ ولذلك يصعُبُ أن تُعطى أحكامٌ خاصّةٌ لكلِّ خطيب، ولكن يمكن ممّا وصل إلينا من خطبهم أن يُشارَ إلى ظواهرَ عامّةٍ كانت في خطبهم، من حيثُ الشّكلُ، ومن حيثُ المضمونُ.

أ – ظواهر في الشّكل:

إنّ أول ما يلفت النّظرَ في خُطَب الجاهليّة هُوَ **القِصَر**، فمعظمُ خطبِهم الّتي بين أيدينا كهذه الخُطَبِ السّابقة قِصارٌ، ولكنْ لا يَعْدَمُ الباحِثُ بعضَ الخطبِ الّتي تتّسم بالطّول، وهي قليلة، كخُطبةِ النّابغة الذُّبيانيّ حينَ وَفَدَ على عمرو بن الحارث الغَسّانيّ وطلَبَ إطلاقَ أَسرى بَنِي ذُبْيانَ، والخُطبةُ الّتي ذكر الجاحظُ أنّ قيسَ بنَ خارجةَ بنِ سِنانٍ الغَطَفانيَّ خطبَها يومًا إلى اللّيل، في حرب داحسٍ والغبراءِ؛ وربّما كان سببُ قلّة الخطبِ الطّويلة ضياعُ كثيرٍ من خطبهم، ولا شكَّ في أنّ الخُطَب الطّويلة أصعبُ حِفظًا من القصيرة.

ومن الظواهر الشّكليّة الواضحة في الخُطبة الجاهليّة أنّ **السَّجْعَ كثِيرٌ فيها**، وهذا السّجع قد يكون شاملاً للخطبة، كما في خطبة قُسّ بن ساعدة، وكما هُوَ في المنافرات مثل منافرة عامر وعلقمة، وكذلك كان كلام الحُكّام الّذين يَحْكُمون بين المتنافرين، حتّى جَعَل الجاحظُ السّجعَ صفةً عامةً لأَحْكام الحُكّام، فقد ذكر عددًا منهم فقال: «كانوا يَحْكُمُونَ ويُنَفِّرُونَ بالأَسْجاع»؛ ومثال ذلك قول نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى العَدَوِيِّ القُرَشِيِّ –وهو جَدُّ عُمَرَ بنِ الخَطّاب رضي الله عنه– يُخاطِبُ حَرْبَ بنَ أميّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عَبْدِ مَناف ويُنَفِّرُ ابنَ عَمِّ أَبِيهِ عبدَ المُطَّلِب بنَ هاشمِ بنِ عبدِ مَناف عليه: «**يا أبا عَمْرو! أَتُنافِرُ رَجُلاً هو أطولُ مِنْكَ قامَةً، وأَعظَمُ منك هامَةً، وأَوْسَمُ منك وَسامَةً، وأَقَلُّ منك مَلامَةً، وأَكثرُ منك وَلَدًا، وأَجْزَلُ منك صَفَدًا، وأَطْوَلُ منك مِذْوَدًا؟ وإنِّي لَأَقولُ هذا، وإنَّكَ لَبَعيدُ الغَضَب، رَفِيعُ الصَّوْتِ في العَرَب، جَلْدُ المَرِيرة، جَلِيلُ العَشِيرة؛ ولكنَّكَ نافَرْتَ مُنفَّرًا**».

وقد يكونُ السّجعُ غالبًا، كما في خطبةِ هانئ بن قَبِيْصَة؛ وقد لا يكون غالبًا، كما في خطبة أبي طالب.

وتتميّز هذه الخُطَبُ **بِقِصَرِ العبارة، وتوازُن العباراتِ المُتَتالِيَة**، وهو مثلُ السَّجْعِ ممّا يُوَفِّرُ لها موسيقى تؤثِّرُ في المستمع.

وربّما لجأ الخطيبُ إلى **الاعتمادِ على الشِّعر** واختتامِ الخُطْبة به، ولكنّ ذلك نادرٌ في خطبهم، ومثالُه خُطبة ابنِ ساعدة، وخُطبة مَرْثِدِ الخَيْرِ.

ب– ظواهرُ في المَضمون:

ممّـا يُلْحَـظُ في مُعظَـمِ الخطـب الجاهليّـة **وَحْـدَةُ الغَـرَض**، ولكنّنـا لا نعـدَمُ خُطَبـاً تتعـدّدُ أغراضُها، كخطبةِ النّابغةِ الذُّبيانيّ أمامَ عَمْرٍو الغسّانيّ، فقد بدأها بمدح الملك، ثمّ انتهى إلى طلبِ إطلاقِ الأسرى، وكذلك خُطبةُ عبدِ الـمُطَّلِبِ أمامَ سيفِ بنِ ذِي يَزَن أوِ ابنِه مَعْدِيكَرِبَ بنِ سَيْفٍ، فقد بدأَ بمدحِ الملِكِ، ثُمّ افتخرَ بقَوْمِه قُـرَيْش، وهنَّأَ الملِكَ في آخرها؛ وفي الإمكانِ القولُ إنّ للخطيبِ غَرَضًا رئيسيًّا، مَهَّدَ لهُ بما يستميل إليهِ الـمُخاطَب ويُكْسبُهُ وُدَّه، فإذا ما انتهى إلى غَرَضِهِ وَجَدَ عندَه ما يطلُبُه، كما كان الشّاعُر يَفعلُ في القصيدِ.

ومن الظّواهر المعنَويّةِ **وضوحُ الأفكار، وبعدُها عن الغموض والتّعقيد**، وهو أمرٌ مَلحوظ في جميع الخطب؛ كما يُلحظ أنّ الخطبةَ تتسلسل في الغالب تسلسلاً منطقيًّا، لها افْتِتاحٌ وجَسَدٌ واختتام، إذْ تبدأُ في العادة بعبارة تتضمّنُ نداءً أو مُخاطَبةً أو نحوَ ذلك ممّا يشدّ الأسماع إلى الخطيب، ثمّ يذكر ما يريد، ويختمها بعبارةٍ تحملُ حِكْمَةً أو نحوها مما يلخّص المُرادَ.

ويُلحظُ أنّ **الإنشاءَ**، مِن أمرٍ ونهيٍ ونداءٍ واستفهامٍ وتمنٍّ وتعجّبٍ، **يَغْلِبُ على الخبر**؛ ولا شكّ في أنّ ذلك ممّا يُبقي المخاطَبِينَ مشدودين إلى الخطيب، لأنّ الإنشاءَ أسلوبٌ يستدعي مشاركةَ الآخَرِينَ، أكثرَ من الخبر؛ فكانَ مِنْ فِطْنَتِهِمْ أَنَّ الخطيبَ عندما يستخدم الخبرَ يلجأُ إلى التّأكيد بالقَسَمِ وأَحْرُفِ التّنبيهِ وأحرفِ التّوكيد وغيرِها من أساليب التّأكيد، وربّما لجأ إلى الموازَنَةِ والمقارنة، وهو مِمّا يُكْسِبُ الخبرَ حيويّةً تبعِدُهُ عن جَفافِ الخبر العاديّ.

وكلَّ هذه الظّواهر الشّكليّة والمعنويّة كانت توفِّر للخُطبةِ الجاهليّة جمالاً فنّيًّا أحسَّ به الجاهليّون فاستلذّوا سماعَها، حتّى شبَّهوها «بالثّيابِ الـمُوَشّاةِ وبالحُلَلِ والدّيْباج وأشباهِ ذلك، كما في رثاءِ أبي قُرْدُودةَ الطّائيّ لابنِ عَمّارٍ خَطِيبِ مَذْحِجَ حين قُتِلَ، فقال:

ومَنْطِـــقٍ خُـــرِّقَ بِالعَواسِـــلِ لَـــذٍّ كَوَشْـــيِ اليُمْنَـــةِ المَراحِـــلِ

وهكذا تبيّنَ أنّ الخَطابةَ في الجاهليّة توافَرتْ لها أسبابٌ جعلتها تزدهر، فاشْتُهِرَ بها في كلِّ قبيلةٍ عددٌ من البلغاء الفُصَحاء تميَّزُوا بصفاتِ الخطيبِ النّاجح، فخطبوا في مناسباتٍ مختلفةٍ، ووفّروا لخطبهم مظاهرَ فنّيّةً في شكلِها ومضمونها جعلَتِ النّاسَ تتأثّرُ بها وتُقْبِلُ عليها بآذانٍ مُصْغِية، وقلوبٍ